مولانا السلطان

قصة بقلم عبد الغفار مكاوي

طردوني من المسرح . لم يكتفوا بطردي . شتموني ولعنوا جدودي. لم يكتفوا بهذا ايضا . صفعوني على وجهي وعيني وركلوني بالاقدام . قالوا لي : اياك ان تضع رجلك على عتبة المسرح . اياك والا قطعنا رأسك ورميناه للكلاب .

نكروا العيش والملح الذي اكلناه معا عشرين عاما . في عز الليل والناس نيام كسروا عظامي واغلقوا ورائي الباب . لم يشفع لي الجري والتعب وسهر الليالي والبهدلة في بلاد الله . حتى الجمهور الذي افنيت عمري في خدمته لم يشعر بحالي ، فقد كنا كما قلت في عز الليل ، بعد ان انصرف الناس واغلقت الستار .

هل احكي لكم الحكاية من اولها ؟

كان ذلك منذ عشرين عاما او يزيد ، حين انضممت الى فرقة « الفنون العالمية » . اقول انضممت واعترف بما في هذا القول من مبالغة . فلم اكن اعرف شيئا عن فن التمثيل ولا جربت الوقوف على المسرح . كنت ايامها ابحث عن عمل ، اي عمل . فبعد ان سقطت في الابتدائية اربع مرات يئس مني ابي وقال يحرم عليك بيتي حتى تبحث لك عن عمل . جربت الف صنعة ، تسكعت في الشوارع ، نمت في الحدائق والجوامع ، اشتغلت صبي نجار وسمكريا وشيالا في السكة الحديد وعتالا بالاجرة وملاحظ انفار وفشلت فيها جميعا . عشت مع النشالين والبلطجية والقوادين ولم افلح في ان اكون نشالا ولا بلطجيا ولا قوادا . حاولت ان انتحر ثلاث مرات ـ محاولات غير جادة بالطبع ـ بالزرنيخ والاسبرين وصبغة اليود ولكنهم كانوا ينقذونني في كل مرة. وحين رات الزفة تسير في مولد سيدي ابراهيم ، معلنة بالطبل والمزمار والصياح عن فرقة الفنون العالمية قررت ان اكون ممثلا ـ مشيت معهم في الزفة ، زعقت باعلى صوتي وتشقلبت كالقرود وملأت وجهي بالدقيق فاحبوني . وذهبت معهم الى مدير الفرقة وقلت له : اريد ان امثل معكم . ابتسم حين رآني امامه ثم مسح على وجهه وقال : الارادة لا تكفي . المهم ان تكون ممثلا . لم افهم فصحت من جديد : اريد ان امثل معكم ! قال بعد ان قطب جبينه : المهم هو الموهبة . ماذا تستطيع ان تمثل ؟ قلت : امثل دور رجل يموت (كنت قد رأيت الموت بعيني اكثر من مرة وجربت اثر السكاكين في بطني عندما كنت اضرب او احاول الانتحار) قال ضاحكا : طيب فرجنا شطارتك . فارتميت على الارض وبدأت اتأوه وأئن وامد ذراعي الى الامام والخلف ، وارسم على وجهي كل ما استطيع من علامات الالم . ويظهر انني كنت ساذجا في التمثيل اذ سمعت المدير يقول : هل تموت ام تتشاءب ؟ قم رح لحالك ! تشنجت وتأوهت في هذه المرة تأوها يقطع القلوب وقلت وانا ابكي : في عرضك يا سعادة المدير . جربوني ولو وليلة واحدة . قال غاضبا : ليس في روايتنا احد يموت . الا اذا وافقت على ان تقطع رأسك كل ليلة. صرخت: تقطعوها او لا تقطعوها . اي دور يا سعادة المدير .

ضحكوا علي وضربوني على قفاي . وحين جلسوا للعشاء عزموا علي واعتبروني واحدا منهم . ورفع المدير صوته وقال : سنعملك حاجبا على باب السلطان . كلما رأيته داخلا المسرح هتفت باعلى صوتك : مولانا السلطان . فهتفت بصوتي الجهوري : حاضر يا مولانا السلطان ! قال في غضب وسط ضحك الممثلين الذين غرغرت عيونهم بالدموع : لا . من غير حاضر . مولانا السلطان فقط . تقولها كل ليلة عشر مرات. وبالنهار تمشي مع زفة الاعلانات وتجذب الجمهور للرواية ولا مانع عندي ان تهتف بدورك الف مرة . ـ ليلتها اتفقنا وكان ما كان . عرفت ان الرواية اسمها « هارون الرشيد او نكبة البرامكة » . رواية من ثلاثة فصول يمكن على حسب الاحوال ان تصبح اثنين او اربعة او حتى خمسة . ومنظر واحد لا يتغير . قاعة العرش يمثلها كرسي فخم مذهب هو كل ما تملكه الفرقة ووراءه منظر بيوت وقباب المفروض انه مدينة بغداد ، وسجادة ذابت ورقعت الف مرة من كثرة ما مشى عليها الزمان ، وسيف قديم لو دقق الجمهور النظر لرأى الصدأ الذي يملأه ، يمسكه العبد مسرور ويخطر به على المسرح ويقطع رقبة جعفر ويقدمها لهارون الرشيد في اخر منظر على صينية من النحاس . وصندوق من الخشب رسم عليه سبع يمسك بيده سيفا يمتلىء بعباءات الممثلين وطرابيشهم ولحاهم المستعارة ايضا . ننقله معنا من بلد الى بلد ، ومن مولد الى مولد ، يجلس عليه الوزراء والعظماء بين يدي السلطان ، وينام عليه السلطان نفسه بعد ان يغلق الستار !

عشرين سنة قضيتها معهم . بالطبع ليس من الواجب ان اتحدث عنهم بضمير الغائب . فقد عرفنا بعضنا واكلنا العيش والملح مع بعضنا ودخنا من الصعيد الجواني لوجه بحري على رجل واحدة في عز الحر وفي عز البرد ، في عربات السبنسة وعلى العربات الكارو ، في الموالد وفي الافراح ، وفي الجوع وفي العطش ، بالليل وبالنهار . « على السبع » هو مدير الفرقة وصاحبها ومؤلف الرواية وموزع التذاكر ومؤدب الجمهور اذا لزم الامر . كان جزارا في شبابه وهو ي التمثيل ـ من كثرة ما شاف في السيما وسمع في الراديو وحفظ من عنترة وابو زيد ـ الفن حكم عليه ان يرمي السكين ويمسك صولجان الخلافة ، ان يترك رقاب العجول والخرفان ويأمر بقطع رقاب البرامكة . ومسرور السياف كان بوابا من النوبة وتاب . زهق من القعدة طول النهار لا شغلة ولا مشغلة . قام في مخه ان يمثل على المرسح . لا يوسف وهبي ولا علي الكسار في زمانه . جاره ابو السباع قال له تقعد في الشمس او تقطع الرقاب ؟ قال له اقطع الرقاب . قال له طيب شف لك سيفا وتعال معي . وجعفر الزبال ـ وكان اسمه الحقيقي جعفر ـ حكم عليه الزمان ان ينضم للفرقة ويقدم رأسه في اخر كل ليلة لمسرور السياف. بالطبع يصرخ طول الرواية ويسترحم ويثبت بالف دليل ودليل انه بريء ولكنه يقدم رأسه في اخر الليل . لا يقدمها بنفسه بالطبع ، بل يقدمها مسرور السياف على صينية النحاس وهو ينحني امام كرسي العرش ويقول : رأس الخائن جعفر يا مولانا السلطان !

اما انا فاقف على المسرح طول الرواية . ساعة او ساعتين او ثلاث ساعات ، على حسب الاحوال كما قلت ، وعلى حسب عدد الجمهور ورواج الايراد . يمكنكم ان تقولوا انني في الحقيقة لم اكن اصنع شيئا سوى الوقوف على رجلي والصياح بملء صوتي الذي يعرفه الناس من اقصى الصعيد الى وجه بحري : مولانا السلطان ! صحت بها وانا شاب في العشرين وصحتها وانا كهل في الاربعين . في المدينة وفي القرية . في الافراح والموالد . عندما كنت صحيحا وعندما بدأ المرض يدب الى جسدي . كانت تخرج قوية من حلقي ، لا بل من صدري كله ، تزلزل ارجاء المسرح الخشبي الصغير ، وترج الصالة ، وتهز القلوب . يظهر بعدها السلطان في ابهته وجلاله ، فيجلس على كرسي العرش ، ويستمع

الى الوزراء والعلماء ، ويداعب زبيدة وقوت القلوب ، ويفرح بغنـــاء الجواري او يغضب لما يرويه له الوزراء ورجال البلاط عن خيانة جعفر وفتنه . يظهر على المسرح فيستقبله صوتي الرنان : مولانا السلطان ! كلمتان اثنتان ، لم يكن لي ان ازيد عليهما كلمة واحدة ، فما كان دوري ـ دور الحاجب ـ ليسمح باكثر منهما . ومع انني كنت ابذل كل مـا استطيع في القيام به على خير وجه ، فاتقنت مع الزمن تأدية الحركات التي تلازم هاتين الكلمتين ، من مد الذراعين على اخرهما ، وتطويـح الرأس الى الخلف ، وحشر كل معاني الرهبة والاجلال في نبرات صوتي الجهوري ، فلم يكن يزيد دوري عن ان اقول : مولانا السلطان ! ومع انني كنت اساعد في تجهيز المسرح قبل بدء العرض ، واحمل الديكور الوحيد الى مكانه في خلفية المسرح ، واضع كرسي العرش والصندوق الكبيـر في مكانهما في الواجهة وعلى اليمين ، واستعجل الممثلين بل واساعدهم في بعض الاحيان على ارتداء ملابسهم وربما ايضا على حفظ ادوارهم ، ومع انني كنت انظم زفة الموكب الذي يقوم بالاعلان للرواية في الشوارع، واشارك فيها بالرقص والغناء والهياج والشقلبة آن اقتضى الامر،وابتكر في ذلك كله ابتكارا يشهد لي به العدو قبل الصديق ، مع انني كنـت افعل ذلك فلم يكن يسمح لي بان ازيد على هاتين الكلمتين كلمة واحدة. وتستطيعون بالطبع ان تتصوروا مدى حزني وضيق صدري علـى مر الايام . صحيح انني كنت سعيداً بذلك الدور متمتعا بالوقوف علـى المسرح كل ليلة اطول مما يقف اي ممثل اخر ، مغتبطا بلقب « ممثل » الذي يطلقه علي زملائي في العمل ، بل وافراد الجمهور الذين كان يحدث ان التقي بهم في الشوارع او على المقاهي ويتذكرونني ، وصحيح ايضا ان عظمة الدور لا تقاس بعدد الكلمات التي يقولها الممثل علـى خشبة المسرح ، كما ان اهميته لا تحسب بحساب الحركات التي يؤديها عليه . الا انه مع ذلك كنت قد بدأت استشعر شيئا كالحزن او خيبة الامل يزحف على قلبي كل ليلة . بل واصارحكم بانني كنت قد بدأت اسأل نفسي الاسئلة التي لا يجوز ان تخطر على بال ممثل حدد دوره من قبل : الى متى اظل على هذه الحال ؟ لماذا لا يتيح لي ابو السباع دورا اكبر ؟ واذا كان من المستحيل أن اقوم بدور جعفر او مسرور او احد الوزراء او العلماء ـ بالطبع لم يكن يدور بخاطري ان اقوم يوما ما بدور السلطان نفسه ، فذلك هو رابع المستحيلات ! ـ فلماذا لا يسمح لي ببضع عبارات اضيفها الى الكلمتين اللتين عهد الي بهما ؟ لماذا لا يضاف مثلا احد المناظر ، حتى ولو كانت ثانوية ولا تؤثر على مجرى الرواية ادنى تأثير ـ يتاح لي فيها ان اظهر براعتي واثبت فيها انني استطيع ان اضيف شيئا الى دوري الذي لا شك في اهميته ولكن لا شك ايضا في ضآلته؟

بمرور الايام رحت افكر في ذلك تفكيرا جديا . بدأت اعلن سخطي هنا وهناك ، في صورة ملاحظات تافهة في اول الامر ، اخذت تتطور بعد ذلك الى ما يشبه التمرد والعصيان . كنت انتهز الفرص لاختلي بجعفـر ومسرور كل على حدة ، بعد ان ينتهي التمثيل وننتهيأ للنوم او نتجول في الشوارع او نشرب الشاي في احد المقاهي . كنت اتوسط عندهما لكـي يشفعا لي عند « ابو السباع » ، كنت ازن عليهما بان المسألة طالت اكثر مما ينبغي ، وان على السلطان ان يسمح لحاجبه ولو مرة واحدة فـي حياته ، ولو في عرض صغير في قرية صغيرة منسية ـ بأن يظهر براعته في التمثيل ، ويقول جملة او جملتين من نفسه . وقد استطعت مع الزمن ان اجذبهما الى صفي ، واضمن عطفهما على قضيتي ، التي اصارحكم بانها كانت في ذلك الحين اشبه بما يسمونه في هذه الايام بقضية حياة او موت . كانت المشكلة الوحيدة عندهما هي ماذا عساي آن اضيف الى ندائي المشهور . فانا لست مؤلفا ولا يمكن ان ادعي ذلك . ولا بد في مثل هذه المشكلة ان يتولاها بنفسه مدير الفرقة وصاحب المسرح والمسئول الاول والاخير عن الرواية . فمن غير الجائز بالنسبة لفرقة تحترم نفسها وتحترم جمهورها ان يقف احد الممثلين ويرتجل كلاما اي كلام على خشبة المسرح . ماذا يفعل ابو السباع يا ترى ؟ ماذا يكون وقع هذه الكلمات عليه ؟ وحتى اذا فرضنا انه لم يغضبه ولم يثر ثوراته المألوفة فمـاذا يكون موقفنا امام الجمهور ؟ واذا حدث وتلجلجت او اختلط الامر على السلطان ولم يعرف بماذا يرد فماذا تكون الحال ؟

مشاكل عويصة بالطبع . حاولت ان التمس لها الحلول مـن كـل طريق . ويظهر ان الانسان مخلوق لا ييأس بطبعه ـ فمجرد انه يتنفس دليل على انه لم ييأس بعد تماما ! ـ وانه في بعض الاحيان يصل بـه الطيش الى حد ان يخاطر بكل شيء في سبيل نزوة طارئة يخيل اليه انها الشعرة التي تفصل بين وجوده وعدمه . المهم انني كنت قد يئست من ان افاتح ابا السباع بنفسي في ذلك الامر . كتمت الامر في نفسي وقلت انتهز فرصة مناسبة والقي بقنبلتي على المسرح . فاما آحرقتني ومـن معي واما تطايرت معها في السماء واصبحت اعظم ممثل فـي فرقة الفنون العالمية ..

وقضيت الاشهر الطويلة افكر في الامر . كان لا بد ان اضيف شيئا الى مولانا . كلمة او كلمتين ، جملة او جملتين او عدة سطور . كـانت المسألة في نظري قد انتهت وتقرر الامر . لا بد من ان اقول شيئا وليكن ما يكون ! وجاءت مشكلة آخرى لم تكن في الانتظار . ماذا ستكون هـذه العبارة ؟ وهل تناسب الجو الذي ستقال فيه ام ستكون شاذة عليه ؟ هل تحوز قبولا لدى هارون الرشيد ام سينفر منها ويغضب وربما يهجم علي ويقبض على رقبتي ؟ واذا اغضبته فهل تحوز رضا الجمهور ؟ انها ان فعلت فلن يهمني بالطبع ان يسخط السلطان او يرضى ، فاسعـاد الجمهور ، كما يعلم كل ممثل على ظهر الارض ، هو هدفنا الاول والاخير. ام يا ترى سيتلجلج السلطان وينسى الدور الذي حفظه ويرتبك ويشعر الجميع بارتباكه ؟ ورأيت بعد طول تفكير انه لا بد من استبعاد هـذا الاحتمال الاخير . فالملقن سيبادر بغير شك الى مساعدته . ومن حسن الحظ ان الملقن دائما ما يكون هناك . آذن فلاتوكل على الله وليكـن ما يكـون ..

وجاءت مشكلة اخرى : ماذا ساقول ؟ لا يمكن بالطبع ان ارتب دورا

شعـر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● مدينة بلا قلب	لاحمد ع. حجازي	٢٠٠
● عيناك مهرجان	لشفيق المعلوف	٢٠٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لاحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠

طويلا يستلزم الاخذ والرد ، كما يستلزم استعدادا سابقا ومرانا طويلا عليه . ثم انني لا استطيع ان ارتب هذا الدور من طرف واحد ، والا للزم ان يخرج السلطان على الفور من المسرح ويتركني لاحدث نفسي . اذن فلا بد ان تكون عبارة او عدة عبارات اضيفها الى كلمتي القديمتين. ولكن اي عبارة ؟ هل اقول مثلا : مولاي السلطان (لاحظ انني قلت مولاي لا مولانا واعتبرت المسألة بذلك شخصية الى ابعد حد !) لماذا حكمت علي بهذا ؟ ـ عبارة سخيفة بغير شك . فهو اولا لم يحكم علي بشيء لانني انا الذي سعيت الى الالتحاق بالفرقة وان لم اكن بالطبع قد سعيت الى هذا الدور بالذات . ثم بماذا يستطيع ان يرد علي ؟ وهل من المعقول ان يتحدث الحاجب ـ وليكن معلوما ان كل جهودي ليس فيها اي اعتراض على هذا الدور ـ الى سيده وسلطانه ويوجه اليه مثل هذا السؤال ؟ ام اخاطبه ـ وسيفاجأ بالطبع بذلك في كل الاحوال ـ قائلا : مولاي السلطان . هل تسمحون لي بأن اقول لكم .. ولكن ماذا اقول له ؟ هنا تأتي المشكلة . ان كل ما سمح لي بقوله هو : مولانا السلطان . اقولها بصوتي الجهوري ، وامد فيها واجود كما اشاء. ولكنها تظل محايدة ، بعيدة عن كل علاقة شخصية ، ثابتة ورزينة كحكم يتلى في المحكمة . ثم ماذا عندي لاقوله له ؟ ستقولون أشكو له حالي . ولكن لماذا اشكو الان بعد هذا العمر الطويل ؟ وهل يستطيع هو نفسه ان يغير من الامر شيئا ـ وهو في نهاية الامر ممثل مثلي يقف على خشبة المسرح كل ليلة كما اقف ؟ ام اقول له ان كرسي العرش الذي تجلسون عليه قد تهرأت بطانته ، وخرجت احشاؤه ، وتخلخلت اقدامه ؟ ولكن ما شأني انا بتغيير الكرسي ؟ اليس من المحتمل ان يخطر على باله انني اريد تغييره هو بتغيير كرسي العرش الذي يجلس عليه ؟

قضيت الاشهر كما قلت افكر فيما سأقوله لابي السباع ، لا بل فيما سأفاجئه به ، في ليلة رهيبة كنت أعلم تماما انها ربما كانت اخر ليلة لي على المسرح ، أو ربما كانت بداية مجد جديد يكتب لي فيها الخلد من السماء . كنت قد بدأت أشعر بدبيب الشيخوخة في جسدي ، بالشعرات البيض تلمع واحدة بعد الاخرى في رأسي ، بالتعب يزحف على روحي . ويظهر ان هذا الشعور ، الى جانب النزوة الطائشة التي كانت قد تحكمت في والتي حكيت لكم عنها من قبل ، هما اللذان أوعزا الي ان انتهي الى عبارتي التي فكرت فيها طويلا . حتى كدت انا نفسي أصبح حرفا او نقطة فيها . (ومن حسن الحظ ان مسرور السياف وجعفر بل والسلطان نفسه لم يلاحظوا في السنوات الاخيرة انني كنت أقف على المسرح شبه غائب عن الوعي ، وان صيحتي المألوفة كانت تأتي قبل موعدها او بعده بل وانني نسيت عدة مرات ان أهتف بها بالمرة) . المهم انني وقفت اخيرا على المسرح ، وجاءت اللحظة التي أقول فيها كلمتي الخطيرة . كان ذلك ليلة الامس كما قلت لكم . ولست في حاجة الى ان اقول انني على الرغم من تعبي ودقات قلبي المتلاحقة ، جمعت كل شجاعتي على طرف لساني وقذفت بها مرة واحدة في وجهه ، بغير ضعف ولا صراخ ولا رغبة ظاهرة او خفية في البكاء او العفو والاستغفار . لم يكد ابو السباع يجلس على كرسي العرش في أول الرواية حتى تركت مكاني المعتاد على البساط الايمن من المسرح ووقفت امامه وقلت : مولاي السلطان ! ورفع ابو السباع رأسه الضخم الي ولاحت على شفتيه الجافتين شبه ابتسامة وفي عينيه الراضيتين شبه استغراب فتقدمت اكثر وألقيت بنفسي على ركبتي وانا أهتف : مولاي السلطان ! هل تسمحون لي بأن أقبل قدميكم ؟!

ونهض السلطان واقفا . في جلال يعرفه الجميع عنه انحنى ووضع يديه على كتفي (يظهر انني كنت قد نسيت نفسي !) وقال : « قم يا بني. قم وخذ جزاءك من عبيدي » . واشار باصبعه الذي يلمع فيه خاتم ذهبي مرصع بفص من الفيروز الى مسرور السياف فأسرع وجذبني معه الى الخارج . لا أدري ان كان الجمهور قد هاج وثار أم ضحك وزاط أم لبث هادئا ولم يلاحظ شيئا (فمن حسن الحظ ان الجمهور في كل ليلة غالبا ما يكون غيره في الليلة السابقة) . المهم انني كنت أنتظر جزائي في الخارج . بعد ان قلت كلمتي نلت جزءا منه والباقي بعد ان انتهت الرواية .

ألم أقل لكم انهم طردوني من المسرح !

القاهرة

عبد الغفار مكاوي

دار الاداب تقدم

الطبعة الثانية من

الرواية العالمية الرائعة

زوربا

تاليف الكاتب اليوناني الكبير

نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة جورج طرابيشي

رواية مدهشة تنبض بالحياة وتمزج الاحداث المشوقة بفلسفة عميقة تثير التأمل والمتعة . وقد اتيح للمواطنين العرب حديثا ان يروا هذه الرواية على الشاشة البيضاء تحت عنوان « زوربا اليوناني » . وهذا الشهر تصدر الطبعة الثانية من هذه الرواية ، ولم يمض على صدور الطبعة الاولى اكثر من اربعة اشهر !

الثمن ٥ ل.ل